تعريف المعجزة

المعجزة لغة: من مادة عجز، والعجز نقيض الحزم، والعجز الضعف، وعجز عن الأمر أي قصر عنه.

تعريف العلماء: المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة، يُظهره الله على يد رسوله.

فالمعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون، ولا تخضع للأسباب والمسببات، ولا يمكن لأحد أن يصل إليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي، وإنما هي هبة من الله ليبرهن بها على صدق رسوله.

أما السحر وغيره من الرياضات البدنية والروحية فلا تدخل تحت مسمى المعجزة أو الخوارق؛ إذ يمكن للإنسان تعلُّمها وإتقانها؛ أما المعجزات والخوارق فلا طاقة للبشر إلى تعلُّمها؛ ولا توجد لها أسباب أو أساليب تؤدي إليها.

شروط المعجزة:

١. أن تكون أمرًا خارقًا للعادة: سواء كانت قولًا: كالقرآن الكريم، وتسبيح الحصى، وحنين الجذع، أو فعلا: كانفجار الماء بين أصابع الرسول، أو تركًا: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم، وعدم إغراق الماء لموسى عليه السلام وقومه.
٢. أن تكون من صنع الله تعالى: فهي هبة من الله تعالى، لا يستطيع أحد تعيين زمانها أو نوعها.
٣. سلامتها من المعارضة: فلا يستطيع أحد من الخصوم أن يأتي بمثلها.
٤. أن تقع على مقتضى قول من يدعيها: فإذا وقعت مخالفة للكيفية التي أخبر به فليست بمعجزة.
٥. التحدي بها لإثبات عجز الجاحدين.
٦. أن يستشهد بها مدعي الرسالة كدليل صدق رسالته ولينسب هذا الأمر إلى الله عز وجل.
٧. أن تأتي المعجزة بعد دعوى الرسالة: فإذا سبقتها كانت إرهاصًا؛ كتظليل السحابة لرسول الله وهو في سفره إلى الشام قبل البعثة.

مراحل التحدي، والقدر المعجز من القرآن الكريم

لما طالب المشركون رسول الله بدليل على صدق نبوته أخبرهم بأن دليل صدقه هو القرآن الكريم الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ). وبيَّن لهم أنهم يدركون أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن، برغم ما كانوا يتميزون به من الفصاحة والبلاغة والبيان، وأنهم يعرفون عجز محمد أيضًا عن ذلك؛ فقد نشأ بينهم أميًّا لم يتلقَّ العلم على أحد من البشر.

شعروا بعجزهم ولكنهم عاندوا واستكبروا، وتفننوا في توجيه الادعاءات والاتهامات الباطلة للقرآن الكريم، فوصفوه بأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا، كما اتهموا الرسول بأنه يتعلمه من رجل أعجمي.

وبعد أن تحداهم القرآن مجتمعين وأثبت عجزهم عن الإتيان بمثله، أثارهم فرادى وسجل على زعمائهم الخزي والعار، فتحدى الوليد بن المغيرة، وأبا جهل، وأبا لهب وهددهم وتوعَّدهم.

تحجج المشركون بأن سبب عجزهم عن معارضة القرآن هو العلوم والأمور الغيبية التي يخبر بها؛ برغم أن هذا حجة للنبي عليهم؛ فأرخى لهم القرآن العنان وتنازل معهم في المحاورة والتحدي إلى عشر سور مفتريات، لم يشترط عليهم موضوعاتها ولا علومها؛ على أن تضاهي فصاحة القرآن وبلاغته، فعجزوا.

وفي نهاية المطاف رضي منهم بأقل من ذلك فاكتفى بسورة ولم يحدد لهم نوعها، ولا موضوعها، ولا طولها، وسواء جاءوا بها منفردين أو مجتمعين فعجزوا.

ولم يكن مراد القرآن إثبات عجزهم كهدف في حد ذاته؛ وإنما كان الغرض أن يدلل لهم بعجزهم هذا على أن الأمر خارج عن طاقات البشر وقدراتهم مهما بلغوا من الفصاحة والبلاغة، وأنه من عند الله رب العالمين.

الجانب التاريخي لإعجاز القرآن الكريم

نشأة مصطلح إعجاز القرآن:

ظل القرآن الكريم مستوليًا على قلوب المؤمنين بروعته وسحر بيانه، بل إن الكافرين المعاندين أيضا كانوا يدركون أن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمغدق، وأن أسفله لمثمر، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأنه ليس من كلام البشر، ولكن الكبر والعناد منعهم من أن يؤمنوا به فاتهموه بأنه سحر يؤثَر.

وكان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك روعة القرآن وجمال أساليبه، واستقر في نفوسهم أنهم عاجزون عن الارتفاع إلى مستواه.

بقيت السليقة العربية على صفائها وقدرتها على هذا التذوق والتمييز عصر النبوة والخلفاء الراشدين وزمنا من الدولة الأموية؛ إلا أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية ومخالطة العرب الفاتحين لأهل البلاد المفتوحة من الفرس والروم واليونان، وغيرهم من أصحاب الألسن واللغات المختلفة، أثر على صفاء السليقة العربية وبدأت تفقد صفاءها.

في هذه البيئة المختلطة بالتيارات الثقافية المتباينة، برز الحديث عن وجوه إعجاز القرآن، وعن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل سورة منه، وكان أول ما ظهر ذلك عندما نُقل عن واصل بن عطاء قوله: " إن إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته"، وهو القول الذي عُرف فيما بعد "بالصرفة".

فبدأ اهتمام العلماء ببيان أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، ومناقشة القول بالصرفة والرد عليه، وظهرت في ذلك كتب ومؤلفات أدبية تتناول ألفاظ القرآن بالدراسة والتحليل، لعل من أولها كتب الجاحظ "نظم القرآن" و"الحيوان" والبيان والتبيين"، ونهج الأدباء الذين جاءوا بعد الجاحظ نهجه في الكشف عن المعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة في آيات القرآن الكريم.

كما تناولت ذلك كتب التفسير والدراسات القرآنية الرد على الطاعنين والمشككين في إعجاز القرآن؛ مثل كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة، وتفسير الطبري.

الإعجاز في كتب المعتزلة

سبق أن ذكرنا أن أول ما قيل حول إعجاز القرآن هو قول واصل بن عطاء شيخ المعتزلة في البصرة بالصرفة وأن إعجاز القرآن كان بصرف الناس عن معارضته؛ ما يعني أن العرب لو توجهوا إلى معارضته لاستطاعوا لكن مانعا منعهم من ذلك، وأن هذا هو الجانب المعجز في القرآن الكريم. وذكرنا أن علماء اللغة والمفسرين وعلماء التأويل انبروا للرد على هذا القول واجتهدوا لإبراز جوانب الإعجاز في القرآن الكريم كل في مجاله.

وكان أول من رد على القول بالصرفة هم علماء المعتزلة أنفسهم؛ فكان الجاحظ أول من تصدى لرد هذا القول قي كتابه "نظم القرآن"، وكتبه الأدبية الأخرى؛ ولعل أول رسالة خاصة بإعجاز القرآن وصلتنا من أحد متكلمي المعتزلة عي رسالة " النكت في إعجاز القرآن" للرُّمَّاني المتوفى سنة ٣٨٤هـ.

يذكر الرماني في رسالته أن وجوه إعجاز القرآن سبعة:

١. ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.
٢. التحدي للكافة.
٣. الصرفة.
٤. البلاغة.
٥. الإخبار الصادق عن الأمور المستقبلية.
٦. نقض العادة.
٧. قياسه بكل معجزة.

كما يقسم البلاغة إلى طبقات ثلاث يجعل في أعلاها بلاغة القرآن الكريم المعجزة. ويقسمها إلى عشرة أقسام هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان.

الإعجاز عند مفسري المعتزلة:

يتسم علماء المعتزلة إلى جانب قدراتهم في علم الكلام، بسمة الفصاحة والبيان، والاطلاع الواسع على فنون البلاغة؛ يبدو هذا واضحا في كتبهم؛ مثل كتاب "المغني" للقاضي عبد الجبار المعتزلي المتوفى سنة

٤١٥هـ، إلا أن الذي حاز قصب السبق في هذا المضمار هو الإمام الزمخشري أبرز علماء المعتزلة؛ حيث جعل كتابه تطبيقا عمليًّا لآرائه في الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

لم يفرد الزمخشري مؤلفا خاصًّا بالإعجاز؛ إلا أنه سلك في تفسيره مسلكا دقيقًا أبرز فيه وجوه إعجاز القرآن من خلال الأساليب البلاغية.

ولولا أن الزمخشري شوه جمال تفسيره بمنازع المعتزلة أحيانا في تأويل بعض الآيات حسب أصولهم، لتبوَّأ تفسيره القمة بين التفاسير البيانية.

الإعجاز عند أهل السنة والجماعة:

تصدى علماء أهل السنة والجماعة للرد على القائلين بالصرفة النافين للإعجاز الذاتي عن القرآن الكريم، وكان أسلوبهم مشابها لأساليب المعتزلة الذين تولَّوا الرد على النظام وأتباعه من القائلين بالصرفة، وكان الطابع العام في هذه الردود بشكل عام:

١- بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم وخطبهم وكلامهم المنثور، ثم أخذ نماذج من هذا الكلام وبيان وجوه البلاغة فيه، واستنباط ألوان المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والسجع والتضمين وغير ذلك من أفانين القول فيه.

ثم مقارنة كل ذلك بما ورد في القرآن الكريم من ألوان بلاغته وإبراز مزايا ما ورد في القرآن الكريم على سائر الكلام، وأن المستوى الرفيع المذكور خارج طوق البشر معجز لقدرات المخلوقين.

٢- دراسة نماذج من الآيات الكريمة وبيان طريقة نظم الألفاظ واختبار الكلمات للدلالة على المعاني الجليلة التي لا عهد للبشر في طرقها والتعرض لها، فهي هدايات قرآنية جليلة اختص القرآن الكريم بها.

يتضح هذا الاتجاه في المناقشة والرد من خلال مؤلفات علماء اللغة وعلم الكلام والفقه والتفسير؛ كابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" والخطابي في رسالته " بيان إعجاز القرآن؛ فهم يبدؤون بالحديث عن البلاغة وعلومها وضرب الأمثلة من كلام العرب على ذلك ثم يصلون إلى إعجاز القرآن من خلال المقارنة.

الخطابي ودوره في بيان إعجاز القرآن:

يعد الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ من علماء أهل السنة والجماعة البارزين، وعُرف بمؤلفاته الجليلة، مثل "غريب الحديث" و"معالم السنن" في شرح سنن أبي داود و"أعلام السنن" في شرح البخاري و"بيان إعجاز القرآن".

لقد اطلع الخطابي على ما كتبه السابقون عن إعجاز القرآن كالجاحظ وابن قتيبة والرماني إلا أننا نجد في أسلوب الخطابي بعض الاختلاف عن أساليب سابقيه، حيث يضيف بعدًا جديدًا إلى مفهوم النظم، ويشير إلى ميزتين مهمتين من مزايا القرآن الكريم؛ هما: صفتا الفخامة والعذوبة.

بالإضافة إلى ما تعرض له في كتابه من الرد على الصرفة والقائلين بها، وما أورده من وجوه أخرى للإعجاز، كالقول بالإعجاز الغيبي.

الباقلاني وكتابه "إعجاز القرآن":

يعتبر كتاب الباقلاني "إعجاز القرآن" من أوسع الكتب التي أُلفت لبيان إعجاز القرآن، وقصد إلى البحث والمواجهة، وذكر كل قول يحتمل أو يرد على الإعجاز، وأكثر من الفصول التي تعرض فيها لآراء السابقين ومناقشتها والرد عليها، وذكر أهمية البحث في إعجاز القرآن لأن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مبنية على معجزة القرآن.

وأفاض القول في إبطال الصرفة، وذكر وجوه إعجاز القرآن وأجملها في ثلاثة وجوه:

١ الإخبار عن الغيوب.

٢ الإنباء عن قصص الأولين وسير المتقدمين.

٣ براعة النظم والتأليف والرصف.

وقد أكثر الباقلاني من ذكر نصوص خطب النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين؛ وكان قصده من سوق هذه النصوص الطويلة ليتدبرها العاقل ويعلم أن نظم القرآن الكريم يخالف نظمهم، ويتبين الحد الذي يتفاوت بين كلام البلغاء والخطباء والشعراء وبين نظم القرآن الكريم.

كما اختار نماذج من الشعر المشهود له بالجودة من شعر امرئ القيس وشعر البحتري، وخلال نقده لها ذكر بعض الآيات وأبرز وجوه الإعجاز فيها.

ثم تعرض لبيان القدر المعجز من القرآن وأقوال العلماء في ذلك، ثم عقد فصلًا في حقيقة المعجزة، وخصص فصلا للرد على بعض الشبهات التي أثارها الملاحدة، ثم ختم كتابه بذكر مزايا القرآن الكريم.

وهكذا نجد أن كتاب الباقلاني قد استوفى الجوانب التي تطرق إليها في إعجاز القرآن بأسلوب مشرق وحجة قوية وحماس منقطع النظير، ولا يزال كتابه المرجع الأكبر بين يدي الباحثين في إعجاز القرآن الكريم.

عبد القاهر الجرجاني ونظريته في إعجاز القرآن:

يُعتبر أبو بكر عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١هـ صاحب نظرية خاصة في البحث عن وجوه إعجاز القرآن.

لم يخصص الجرجاني كتابًا معينا قصره على البحث في إعجاز القرآن؛ وإنما ألف ثلاثة كتب لها علاقة وثيقة بهذا الموضوع هي: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز"، و"الرسالة الشافية".

ولقد عمد عبد القاهر الجرجاني إلى البحث عن البلاغة ووجوهها وأساليبها للارتقاء بالذوق البلاغي عند القارئ ومن ثم ليضع يده على مَواطن البلاغة في كلام كل بليغ، سواء كان هذا الكلام شعرا أو نثرا أو خطبة. ويُبرز وجه الحسن في الكلام من خلال أمثلة مختارة، وبعد ذلك يلتفت من خلال تلك المقدمات والأمثلة إلى إعجاز القرآن الكريم ورأيه في ذلك.

شعر عبد القاهر أن السابقين قد أكثروا في الحديث عن الجانب اللفظي، ولم يتناولوا جانب المعاني إلا لمامًا، فحصر جهده وكتاباته على إبراز جانب المعاني.

وقد أورد في كتاباته أمثلة على مواطن البلاغة في القرآن الكريم لفظًا ومعنًى؛ نحو حذف أحد أركان الجملة للتركيز على آخر، واحتمال النظم وجوها ثم اختيار وجه معين دون غيره من الوجوه، وغير ذلك من وجوه البلاغة.

كما زخرت كتب التفسير عند أهل السنة والجماعة بالفصول والأبواب والمقدمات المخصصة لبيان إعجاز القرآن؛ من ذلك ما ورد في "البحر المحيط" لأبي حيان، و"إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" لأبي مسعود، و"فتح القدير" للشوكاني وعيرها.

وجوه إعجاز القرآن الكريم:

تباينت أقوال العلماء في تحديد وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ فمنهم من أوصلها إلى عشرة وجوه ومنهم من جعلها وجها واحدا ونافح عنه وأورد الاعتراضات على سواه.

ومن يتتبع هذه الوجوه التي ذكرها العلماء يجد بين كثير منها تداخلا وتشابها، ويمكن بعد الاستقراء والتحقق أن يجمع بين كثير منها؛ فكثير منها يدور حول الأداء البياني وأسلوب القرآن الكريم المتميز في ذلك... ووجوه تنصبُّ على الهدايات في القرآن الكريم ومراميه في إسعاد البشرية بإخراجها من الظلمات إلى النور وإيصالها إلى دار السعادة والنعيم المقيم... ومن الوجوه ما يتعلق بالإخبار عن الغيوب... ومنها ما اشتمل على إشارات وإيحاءات إلى سنن الله في الكون والطبيعة والحياة التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

لذا يمكن أن نجمع الأقوال جميعا في أربعة أوجه؛ وهي:

أولًا: الإعجاز البياني.

ثانيًا: الإعجاز العلمي (التجريبي).

ثالثًا: الإعجاز التشريعي.

رابعًا: الإعجاز الغيبي.

الفصل الأول

الإعجاز البياني

فصاحة القرآن وبلاغته

أولًا: تعريف الفصاحة والبلاغة:

الفصاحة لغة: الظهور والبيان، ومنها أفصح اللبن إذا انجلت رغوته، ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوؤه واستبان، ولسان فصيح أي طلق.

وفي القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي).

واصطلاحًا: فصاحة الكلام خلوصه من التعقيد. وفصاحة القرآن: كونه لفظًا عربيًّا مستعملًا يؤدي المعنى بلا تعقيد.

فتعريفات الفصاحة كلها تدور حول الإظهار والوضوح مع الخلو من التعقيد.

والبلاغة لغة: مأخوذة من البلوغ، وهو الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه. يقال: بلغت المكان بلوغًا: وصلت إليه.

وفي الاصطلاح: البلاغة إيصال المعنى إلى قلب المخاطب في أحسن صورة من اللفظ. وقيل: أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الاقتناع من العقل والوجدان من القلب.

ونجد أن تعاريف البلاغة معظمها يدور حول: إيصال المعنى إلى قلب المخاطب بعبارة سهلة موجزة، مراعيا في ذلك مقتضى حال السامع بحيث يؤثر في نفسه ويبلغ منها ما يريد القائل.

هل من فرق بين الفصاحة والبلاغة؟

قيل إنهما متعاقبان على معنى واحد، وذهب أغلبهم إلى التفريق فقالوا: البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ. يقال: معنى بليغ ولفظ فصيح. ويقال: كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغًا.

أمثلة على بعض الفنون البلاغية:

١ إيجاز القصر:

أ- من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

أمر سبحانه وتعالى في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغي، ووعظ في آخرها وذكَّر، فجمع في هذه ضروبا من البيان وأنواعا من الإحسان، والفحشاء والمنكر بالألف واللام التي هي للاستغراق؛ أي استغراق الجنس المحتوي على جميع أنواعه وضروبه.

وفي نهايتها الطباق اللفظي والطباق المعنوي، أما اللفظي ففي قوله (يأمر ... وينهى) وأما المعنوي ففي قوله: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وقوله الفحشاء والمنكر والبغي، فإن الثلاثة الأواخر من القبيح، فطابق بين الحسن والقبيح مطابقة معنوية.

ثم بيَّن خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيصاء عليهم والإيتاء لهم مع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم.

وبدأ بالعدل لأنه فرض، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه وقد يجب، فاحتوت الآية على حسن النسق، وعطف الجمل بعضها على بعض، فقدم العدل وعطف عليه بالإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعًا خاصًّا وهو إيتاء ذي القربى.

ثم أتى بالأمر مقدمًا، وعطف عليه النهي بالواو، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره.

ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا، ما لو بُثَّ في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها، ولا احتوت على أصولها ومبانيها.

ب- المثال الثاني على الإيجاز بسورة قصيرة من القرآن الكريم وهي سورة الكوثر وأقصر سور القرآن، فعلى الرغم من كلماتها القليلة المحدودة تضمنت من المعاني البديعة والفصاحة والبلاغة الرائعة

التي اقتضت بها أن تكون مصداقا لقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).

ت- المثال الثالث في المقارنة بين كلام موجز من القرآن الكريم وبين كلام موجز ورد عن العرب:

أما الآية الكريمة فقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)، وهو جزء من آية، ومعناها أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قُتل به، وكان ذلك داعيًا إلى ألَّا يُقدِم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثيرٌ من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

وورد في هذا عن العرب قولهم: (القتل أنفى للقتل). وأبرزَ العلماء بلاغة العبارة القرآنية على الثانية بعشرين وجهًا أو أكثر.

٢- ومن الفنون البلاغية: التتميم.

وهو على ثلاثة أقسام: تتميم النقص، وتتميم الاحتياط، وتتميم المبالغة.

وقد وردت الأقسام الثلاثة كلها في قوله تعالى: (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ).

جاء أول هذه التتميمات في قوله تعالى: (مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)؛ فلو قال جنة لكان كافيًا، ولكن عندئذٍ تحتمل أن تكون جنة ذات أثل وخمط وشيء من سدر قليل؛ فإن لفظ الجنة يصدُق على كل شجر، ومن الشجر ما له نفع عظيم كالنخيل والأعناب؛ فإذا كانت الجنة عظيمة الفائدة ثم احترقت كان أسف صاحبها أعظم ومصابه أفدح.

ثم علم سبحانه وتعالى أن الجنة إن كانت من نخيل وأعناب ما لم تجر الأنهار من تحتها لم يثمر شجرها ولم ينتفع بسكنها ولم تكن لها حياة البتة، **فتمم هذا النقص** بقوله تعالى: (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ).

ثم علم الله سبحانه وتعالى أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ونفعها أعظم، والأسف على فسادها أشد، فقال تعالى: (لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)، متممًا ذلك **تتميم مبالغة**.

ثم علم الله سبحانه وتعالى أن النار يُحتمل أن تكون ضعيفة فتُطفأ لضعفها عن مقاومة ما في الجنة من الأنهار ورطوبة الأشجار، **فاحتاط** لذلك بقوله: (فَاحْتَرَقَتْ) فنفى هذا الاحتمال وأوجز تتميم المعنى المراد.

٣- من الفنون البلاغية: التشبيه.

قال تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

في هذه الآية عشر جمل وقع التركيب في مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض... إلى آخر ما ورد بالآية من تشبيهات.

دلالة الإعجاز البياني على مصدر القرآن

يتضح مما سبق استعراضه من جوانب بيان القرآن الكريم وفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه روعة أفانين القول التي وردت فيه من فاتحته إلى خاتمته؛ إذ لا تخلو آية من آياته عن نكتة لطيفة أو حكمة طريفة أو بيان مفحم أو عبارة تأخذ بالألباب وتحير العقول بجمالها وبلاغتها.

الفصل الثاني

الإعجاز العلمي (التجريبي)

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

تمهيد:

الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها، (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا).

وجاءت الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة؛ فمن مخاطبة للفطرة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري...

ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طبقاتهم وفئاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من الأدلة والبراهين والأمثال ما يعم الشرائح الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات؛ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا).

ولما كان من فئات المكلفين والمخاطبين بالقرآن الكريم من ينصبُّ جلُّ اهتمامهم على الجوانب العلمية ودراسة الآفاق وما يتعلق منها بالنفس البشرية، ولا بد من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن كلام الله المنَزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم ليبشر به المؤمنين وينذر به قوما لُدًّا، ومن العسير على هذه الطوائف أن تتذوق الجمال البياني وتدرك فصاحته وبلاغته، ولكنهم يدركون أن هذه المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لا يُتصوَّر أن يدركها بشر من ذاته؛ لأن كثيرًا منها لم يُكتشَف إلا في عصور متأخرة جدًّا بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها.

فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقَّاها ممن يعلم السر في السماوات والأرض (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

وآيات القرآن التي تحدثت عن سنن الله في الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته كثيرة ومتعددة، وقد أولى المهتمون بالدراسات القرآنية جانب الإعجاز العلمي في القرآن اهتمامهم.

إلا أن دراسات سابقة اتجهت هذا الاتجاه من غير ضوابط، على الرغم من حماس أصحابها وصدق مشاعرهم قد أدت إلى نتائج عكسية؛ مما جعل كثيرا من الناس يحملون على هذا الاتجاه حرصًا منهم على إبعاد القرآن الكريم عن الإخضاع للنظريات العلمية المتقلبة، أو التعسف في تأويل النصوص أو تحميلها ما لا تحتمل من الدلالات.

إلا أن طرفي القضية قد وقعا في محظور؛ فكان لا بد من وضع ضوابط تحكم البحث في الإعجاز العلمي في القرآن بدون إفراط أو تفريط.

ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن:

هناك عدة ضوابط ينبغي أن نضعها نصب أعيننا قبل البدء ببحث الآيات الكونية، منها:

١ القرآن كتاب هداية:

ينبغي أن تراعي الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية أن القرآن كتاب هداية هدفه توجيه الناس وهدايتهم للقيام بالدور الذي أوكل إليهم في خلافة الأرض ولأداء المهمة التي خُلقوا من أجلها (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ). وقد سلك القرآن الكريم جميع الأساليب والمسالك العقلية والفطرية لحمل الإنسان على هذا الهدف، فلفت الأنظار من أجل ذلك إلى الكون المحيط بأفلاكه وكواكبه وليله ونهاره وسهوله وجباله وبحاره وأنهاره وسحبه وأمطاره ونباته وأشجاره.

ولفت النظر كذلك إلى أعماق النفس الإنسانية بعواطفها ومشاعرها وطاقاتها وقدرتها.

لذلك ينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية في حدود هذا الغرض ولا تتجاوزه؛ حتى لا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم.

٢ ترك الإفراط والتفريط:

القرآن الكريم يحث على التأمل والتفكر والتدبر في الآيات الكونية، بشرط التقيد بالمنهج القرآني وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمل، فلا يصح أن نجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب علمية متخصصة لا تترك شاردة ولا واردة من الأمور العلمية والكونية إلا وربطتها بتفسير الآية الكريمة؛ فإن هذا العمل يخرج بنا عن حد الاعتدال، كما يخرج بالتفاسير عن هدفها الأساسي وهو شرح وبيان الأساليب المستخدمة لتحقيق الهداية التي يريدها القرآن الكريم للناس.

٣ مرونة الأسلوب القرآني:

الأسلوب القرآني مرن يقبل وجوها في التأويل؛ لذلك ينبغي الرجوع إلا دلالات الكلمة الحقيقة والمجازية واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحتملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها.

٤ الحقائق العلمية مناط الاستدلال:

ينبغي الاقتصار على الحقائق العلمية الثابتة والبعد عن الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، حتى ولو من باب الاستئناس بها؛ لأن ربط نظرية قابلة للتغير والإبطال بتفسير آية قرآنية في حال ظهور بطلان هذه النظرية فلن يسلَم الفهم الخاص بالآية من التشويش والاهتزاز، وكلام الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يطرأ عليه مثل ذلك.

٥ عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة:

عند وجود حقيقة علمية تؤيد إحدى دلالات آية كريمة، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية؛ على ألا نحكم بالبطلان والفساد على الدلالات الأخرى للآية؛ فترجيحنا هذا لا يمنع وجود مغان ودلالات أخرى للآية ربما لم تُعرف بعدُ؛ فالتقدم العلمي والحضاري كفيل أن يميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلًا قوله تعالى: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَه) كان إلى ما يقرب من مائة سنة يُنظر إلى دلالة (تسوية البنان) نظرة تختلف عن نظرتنا لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، إلا أننا لا نُبطل كلام السلف في معنى الآية؛ فالآية تدل على ما قالوه وما فهموه.

٦ استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية

يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية؛ لأنهما من مشكاة واحدة. وينبغي أن يكون من المسلَّمات في أذهاننا أن الحقائق القرآنية المتعلقة بأي جانب من جوانب الكون أو الإنسان والحيوان والنبات – إذا كانت قطعية الدلالة – لا يمكن أن تصادمها حقيقة علمية قد ثبتت صحتها، وتخطت مرحلة الظن والتجريب.

٧ اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة:

من سنن الله الثابتة أن أمور الكون قائمة على سنن خلقها الله سبحانه وتعالى وسير الكون بموجبها، فإن من تعرَّف على هذه السنن أمكنه تسخيرها لمصالحه والإفادة منها في تيسير سبل العيش وإحراز التقدم المادي، بغض النظر عن معتقده وسلوكه.

وهذه سنة الله في أمور الدنيا؛ فهو يُعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا من أحبَّ.

أمثلة على ما ورد من الإعجاز العلمي بالقرآن الكريم

بدء الكون ومصيره:

يقول تعالى: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

في هذه الآيات الكريمة إشارة إلى ثلاث حقائق كونية:

١ خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء.

٢ أصل الكون المادي من الدخان.

٣ الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

حتى الآن ما زالت العلوم الطبيعية والفضائية تحبو للتعرف على أصل الكون ونشأته والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية وطريقة تشكيلها. بينما نجد في القرآن الكريم تفصيلات لحقائق علمية تتكشف لنا كل حين حول مراحل الخلق والتكوين كما في قوله تعالى: (اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ).

كما أن هناك من حقائق الكون ما لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض؛ كحقيقة خلق الأرض ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام، كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات؛ لأن وسائل الإنسان محدودة فلا يستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب الغيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية والسابق منها عن اللاحق.

السماء

قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ).

في هذه الآية يذكر القرآن الكريم بناء الكون المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحتوي كل مجرة منها بلايين الشموس والنجوم وما يتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب ما يعجُّ به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات، وما يتسع له الكون من مجرات؛ وما يتكشف لنا كل يوم من أسرار السماء والسنين الضوئية والتباعد بين المجرات لهو دليل على قدرة الخالق سبحانه وإعجاز قرآنه الكريم.

السماوات والأرض

يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

ويقول تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

في الآيات السابقة وردت حقيقة حول السماء؛ وهي ذكر العُمُد، وللمفسرين في ذلك تأويلان:

- فمنهم من أثبت أن للسماوات أعمدة إلا أنها لا تُرى.
- ومنهم من ذهب إلى أن ليس للسماوات عمد أصلًا.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الله سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيها بمثابة لبنة من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى هي نوع من القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، التي تعد بمثابة الأعمدة المقامة بالفعل.

كما ورد في القرآن الكريم الكثير والكثير من الآيات التي تتحدث عن خصائص الأرض ومزاياها ومبدأ خلقها ونهايتها، وتكوير الليل على النهار، وأن الأرض تسير، ودورانها حول الشمس وحول نفسها، وكونها مدحوة.

الشمس والقمر

كما فرقت الآيات الكريمة بدقة متناهية بين صفة كل من الشمس والقمر، ووظيفة كل منهما؛ فالشمس سراج وهاج يعطي الضوء من ذاته، والقمر كالمرآة تعكس الضوء الساقط على سطحها نورا يبدد به الظلام.

ومن الآيات التي تُظهر إعجاز القرآن الكريم ما ورد في تقرير حقائق الكون، قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)؛ فلم يكن يدور بخلد أحد عند نزول القرآن أن مواقع النجوم شيء جدير بأن يُقسم به الخالق ويقرر عظمته؛ وهو ما دار حوله الكثير من الأبحاث والدراسات في العصر الحديث خاصة بعد اكتشاف المجاهر ووسائل تقريب الرؤية وتكبير الأجرام غير المرئية، وأبعاد السيارات ومداراتها في المجموعة الشمسية.

الجبال

كما وردت آيات في وصف الجبال وأهميتها لتثبيت الأرض واستقرارها، فوصفها بقوله: (وَالجِبَالَ أَوْتَادًا)، وقوله: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ) وقوله: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)، وقوله: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

هذه الحقيقة أدركها علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في العصر الحديث، وعددوا مزايا الجبال وأهميتها في حفظ الأرض وثبات بعدها عن الشمس، ودورها في القشرة الأرضية نفسها، وارتباط المياه بالجبال؛ إذ أثبتوا أن أعذب المياه وأغزرها ما كانت ينابيعها من الجبال وسفوحها.

البحار

يقول تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

ويقول: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان).

توصل العلم الحديث إلى صور شتى وحالات متعددة لا يتجاوز فيها ماء البحرين على الآخر ولا يتعدى الحاجز الموضوع للفصل بينهما، وذكروا تأثيرات التبخر وتكون السحب وتكون الأمطار، دورة المياه، والسيول، وتأثريات الماء الأجاج والعذب الفرات، واختلاف الخواص الكيميائية والتركيبة الطبيعية لمياه كل من البحار والأنهار، وقد يكتشف غير هذا في المستقبل، لكن تبقى الحقيقة الخالدة: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا

عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

الظواهر الطبيعية

والآيات الواردة في ذكر الرياح وأثرها في تسيير السحاب وسقوط والأمطار والرعد والبرق، وغيرها من الظواهر الطبيعية، من أدق وأعجب الأمور التي توصل إليها العلم الحديث، فلو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الحقائق لكانت كافية لتدلنا على أن منزل القرآن هو خالق السماوات والأرض ومصرف الرياح ومنزل الملء من السماء ليحيي به الأرض بعد موتها.

الحيوان

يقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان لا تقل أهمية ودقة عما يقرره في كل جانب من جوانب الكون والحياة؛ فهو يلفت النظر تارة إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير الدواب ركوبا وحملا ولباسا وطعاما وشرابا وزينة؛ فهي مسخرة للإنسان مذللة له منقادة.

أ- التذليل:

إن ظاهرة انقياد بعض الحيوان للإنسان وتنوعه بين أليف مستأنس ووحشي مفترس ظاهرة تستحق التأمل والدراسة كما تستوجب شكر المنعم الذي جعل في الأليف المستأنس منها هذه الطباع التي بدونها لما استطاع الإنسان إلى التغلب عليها سبيلًا.

يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ).

ب- الرزق:

معلوم أن الحيوانات ليس لها عقل تفكر به وتخطط لتحصيل رزقها وتخزينه، ما عدا أنواعًا منها يعدها علماء الحيوان في الطبقة الراقية من الحيوان كالنمل والنحل. إن قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكل شيء قد تكفلت بأرزاقها، وتوفر سبل البقاء أمامها.

يقول تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

ويقول تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ث- أنماط الحياة والتكاثر:

لقد نص القرآن الكريم على أن هذه المخلوقات من الدواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة والسير أمم وفصائل أمثال الناس.

يقول تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

ويقول تعالى: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

ولقد أدرك العلم الحديث شيئًا جزئيًّا من حياة الحيوان بالمخالطة والتتبع والاستقراء، وتأكد لدى الباحثين أن كل حيوان ينتمي إلى فصيلة معينة تجمع بين أفرادها خصائص واحدة وتربطها فيما بينها نظم ثابتة ولها وسائلها الخاصة في التفاهم.

ومن دراسة ظواهر الحيوانات الأليفة أثبتوا أن لكل صنف منها لغة خاصة يتفاهم بها ويتعارف مع غيره على أحواله، وأحوال ما يحيط به.

وقد أخبر القرآن أن نبي الله سليمان عليه السلام قد عُلِّم منطق الطير والحيوان، وفهم لغاته.

وما ورد في القرآن من اتخاذ النحل من الجبال بيوتا وجعل العسل شفاء، أثبت العلم الحديث صحته في دراسات مستفيضة حول فوائد العسل والتداوي بسم النحل.

الإنسان

لقد حظي الإنسان بالجانب الأكبر من اهتمام القرآن الكريم، كيف لا وهو سيد المخلوقات الذي سخَّر له كل ما في السماوات والأرض، وخُصَّ بملكة العقل والبيان، فكان أهلا لحمل الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، وأشفقت منها وحملها الإنسان.

لقد بيَّن القرآن مبدأ خلق النوع البشري، ثم سنة الله في تطوره وتكاثره من الزوجين الذكر والأنثى، وبيَّن أطوار خلقه في الظلمات الثلاث داخل القرار المكين، إلى أن يخرج خلقًا آخر مكتمل الخلقة سويًّا.

إن دراسة الإنسان من خلال آي الذكر الحكيم لن يصل إلى دقائق أسرارها جيل من الأجيال مهما بُذلت الجهود ومهما رُصدت الأموال للأبحاث في مخلوق يكتنف الغموض جوانب كينونته وتلفُّ الأسرار حقيقة ماهيته.

وفي عصرنا الحاضر وعلى الرغم من تقدُّم العلوم الهائل في مجالات الحياة المختلفة فلا يزال الإنسان ذلك اللغز المحير، ولا تزال جوانب كثيرة مجهولة تمامًا في الإنسان لم يستطع العلماء أن يفهموا حتى ظواهرها البسيطة: كيف بفكر الإنسان؟ كيف يحلل الأمور؟ كيف ينام؟ كيف يضحك؟ كيف يحب؟ كيف يغضب؟ كيف...؟ كيف...؟

يقول تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ).

ويقول: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ).

ويقول: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ).

ويقول: (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ).

ويقول: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ).

والآيات الواردة حول خلق الإنسان وتكوينه ومراحل تطوره تحوي من الإعجاز ما لا يترك لذي عقل خيارًا إلا أن يخرَّ ساجدًا لعالم الغيب والشهادة اللطيف الخبير الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

إن الإشارات التي وردت في ثنايا آي الذكر الحكيم تتحدث عن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح في مختلف مجالاته، وتتحدث عن النفس الإنسانية وأعماقها وعواطفها ومشاعرها.

إن سَوق القرآن الكريم هذه الحقائق بهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كل صاحب عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علمًا.

إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يُعقل أن يكون هذا القرآن من عند رجلٍ أُمِّيٍّ عاش في بيئة أُمِّيَّةٍ لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدمًا في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟!

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

الفصل الثالث

الإعجاز التشريعي

أبدع الله تعالى الكون من العدم، وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عددًا، وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم. وقد اختار لهذا المخلوق المكرم دستورا في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى، ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم.

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانبًا من جوانب الحياة إلا كان له تشريعه المستقل (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).

والأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطةً ودقةً وشمولًا.

ففي العقيدة، جاء القرآن الكريم بعقيدة سهلة خالية من التعقيد ملائمة للفطرة الإنسانية تملأ النفس طمأنينة وارتياحًا، والقلب نورًا وانشراحًا، والعقل قناعة.

فعقيدة وحدة الرسالات ودعوة كل الرسل والأنبياء إلى إله واحد داعية إلى لمِّ شمل البشر جميعًا تحت راية واحدة ونبذ الفُرقة والخلاف.

وعقيدة البعث والحساب تقرر العدل الإلهي وتقوِّم السلوك الإنساني في الحياة الدنيا، وتدفعه نحو الكمالات النفسية والتحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل، كما أنه عزاء لأهل الخير والصلاح إن فاتتهم سراء أو أصابهم الضر في الحياة الدنيا.

وفي الشريعة، أرسى القرآن الكريم دعائم المجتمع الإسلامي على أسس متينة وشرع لنا من التشريعات المستمدة من العقيدة الراسخة ما يوفر له السعادة والطمأنينة ويسمو به نحو الكمال البشري.

- فالرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

- وتشريعات الإسلام داعية إلى الوحدة والتكافل والمساواة بين المسلمين ونبذ الخلاف والشقاق.
- كما أعطى الإسلام للأسرة أهمية ومكانة عظيمة في المجتمع باعتبارها اللبنة الأولى والنواة التي يقوم عليها المجتمع؛ فجعل الزواج أصل نشوء الأسرة وحث عليه وجعل له شروطا إذا روعيت من شأنها أن تقوي الحياة الزوجية وتدعم استمرارها وتحول بين تدهورها وانحلالها.
- كذلك وضع تشريعات خاصة بالسلطة والسياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية في السلم والحرب، لقد أقام الإسلام دولة لم يشهد التاريخ لها مثيلا، تحققت فيها كل مقومات السعادة والأمن والعدل وكل مظاهر القوة والعظمة والمجد؛ وذلك نتيجة تطبيق أحكام القرآن الكريم.
- فقد ارتكزت على أسس ودعائم قوية من الشورى، والعدل المطلق بين الرعية، والتكافل الاجتماعي، مراعاة العهود والمواثيق.

وفي الأخلاق، حث القرآن الكريم على فضائل الأخلاق بدأ من الكلمة الطيبة وتبسُّم المسلم في وجه أخيه، وحذر من مساوئها حتى ولو كانت بإشاحة الوجه أو التجهم في وجه الغير.

كما دعا إلى مراعاة الحدود الفاصلة بين الفضائل والرذائل؛ فالمسلم عزيز في غير كبر، متواضع في غير مذلة، سخي في غير إسراف، شديد في غير غلظة، لين في غير ضعف...

كما تنوعت أساليب القرآن في الحث على الأخلاق الحميدة والنهي عن الأخلاق الذميمة، بين الأمر والوصية، والموعظة، والثناء، استخدام الأساليب التربوية الرائعة كالإيحاء والزجر.

إن تاريخ البشرية لم يحدثنا عن مصلح اجتماعي أو فيلسوف عبقري أنه وضع نظام حياة لشعب من الشعوب بمختلف فئاته وتنوع مجالاتها، فلم تخلُ محاولات المصلحين من كثير من الانتقادات نتيجة قصورها عن استيعاب مشاكل مجتمعاتهم، والتناقض بين عناصرها أحيانا.

إن الإعجاز التشريعي لآية بينة على أن القرآن الكريم كلام الله أنزله على قلب عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من ظلمات الانحراف والضلال والشقاء إلى نور الإيمان والهداية والتمسك بحبل الله المتين:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

الفصل الرابع

الإعجاز الغيبي

من وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره بالغيب، ويُقصد بالغيب ما كان غائبًا عن محمد صلى الله غليه وسلم، ولم يشهد حوادث الواقعة ولم يحضر وقتها، ولم يكن على علم بتفصيلاتها، فيدخل في ذلك ما ورد عن بداية نشأة الكون وما وقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول الله صلى الله غليه وسلم، وكذلك يشمل ما غاب عنه في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويُخبر بها بطريق الوحي؛ كإخبار الله سبحانه وتعالى له بما يكيده اليهود والمنافقون، ويشمل ما تضمنه من الأخبار عما يكون في مستقبل الزمان.

فمن إخباره **بغيب الماضي**، ما ورد به من أخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء والرسل السابقين؛ فهي تدل صدق الرسول وعلى أن القرآن الكريم إنما جاءه عن طريق الوحي، كما ورد في قصة مريم غليها السلام: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)، وكما جاء بعد قصة نوح عليه السلام: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ).

إن ورود أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بهذا الشكل المفصل الدقيق في القرآن الكريم دليل على أنه وحي من الله سبحانه وتعالى وليس من عند بشر؛ لأن من ترعرع في بيئة مثل البيئة التي نشأ فيها محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكنه أن يطلع على مثل هذه الأمور التي لا سبيل إلى الحصول عليها إلا بالتلقي والتلقين، ولم بكن في هذه البيئة من يعرف كل هذه الأنباء على هذا الوجه الدقيق.

ومن إخباره **بغيب الحاضر** ما جاء في شأن اليهود وما كان من اختبارهم للنبي وإخفائهم حد الزاني في التوراة، وأساليبهم الملتوية التي اتبعوها لإدخال الوساوس والأحزان في قلوب المسلمين، فجاء الوحي يكشف مكرهم وينهاهم عن النجوى، وما كان من تآمرهم لقتله وإخبار الوحي له بما يحيكون له من مؤامرات.

ومن إخباره **بغيب المستقبل** ما وقع من هزيمة الروم في حربهم مع الفرس، فأخبر القرآن بأن الروم (مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ) ولسائل أن يسأل كيف يجزم إنسان بانتصار في حرب مستقبلية

لجيش مهزوم، وليس لديه أي معلومات عسكرية أو بيانات عن التجهيزات والمعدات التي ستكون لدى كل فريق في مثل هذا القتال.

- ويقول عز من قائل في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وهو تحدٍّ لا يمكن أن يصدر عن بشر بهذا الجزم القاطع (وَلَنْ تَفْعَلُوا)؛ فبلاد العرب واسعة وسكانها كثيرون وأطرافها متباعدة، فهذا القضاء الحاسم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاءً بشريًّا.

- توعَّد القرآن الكريم أناسًا معينين معروفين وحدد مصيرهم في الدنيا والآخرة أنهم سيموتون على الكفر ويخلدون في النار، كأبي لهب (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) والوليد بن المغيرة (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) وأبي جهل (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ).

فلو آمن واحد من هؤلاء الثلاثة الذين دمغهم القرآن بالكفر، لانطفأت شعلة الإسلام، ولقامت الحجة على القرآن ومن جاء به، وهو ما لم يحدث؛ أفلا يدل هذا جليًّا على أن القرآن من عند خالق الحياة والممات، والذي مصير كل شيء بيده، ومآل كل شيء إليه، وهو الذي حفظ دينه وكتابه (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

ولو ذهبنا نتتبع أخبار القرآن الكريم في هذا الجانب من الغيب لطال بنا المسير، وإنما نشير إلى جملة من الآيات الكريمة في هذا الشأن، فمن هذه الآيات قوله تعالى:

(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ).

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).

(لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ).

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ).

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ).

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ).

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا).

إن هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن الكريم لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه كلام رب العالمين الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق، لا تخفى عليه خافية.

إعجاز القرآن في دراسات المعاصرين

١ مصطفى صادق الرافعي وكتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية":

يذهب الرافعي إلى أن القرآن معجز، بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، وأنه أثر من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد القرآن عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة من عصارة تلك المواد كلها.

ويرى الرافعي أن إعجاز القرآن في بلاغة النظم، وقسم النظم إلى الحروف والكلمات والجمل.

كما يرى أن أسلوب القرآن قد بلغ حد الإعجاز في التنسيق، وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز، من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدرًا على تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديرًا يطابق وضعها وقواها وتصرفها.

فأنت ما دمت مع القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب ومواضع التأليف، وألوان التصوير وأغراض الكلام كأنها تُفضي إليك جملة واحدة.

يمكن القول إن عماد حديث الرافعي عن إعجاز النظم الموسيقي يعتمد بالدرجة الأولى على الألفاظ وعلى الجانب الصوتي منها على وجه الخصوص.

٢ رأي الدكتور محمد عبد الله الدراز:

ذكر الدكتور الدراز في كتابه "النبأ العظيم" ثلاثة أوجه من الإعجاز:

١- الإعجاز اللغوي.

٢- الإعجاز العلمي.

٣- الإعجاز التشريعي.

وقد فصل في الوجه الأول، لأنه هو الذي وقع من جهته التحدي بالقرآن. ويتجلى ذلك في ناحيتين:

الناحية الأولى: الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدَّاته وغنَّاته.

والناحية الثانية: الجمال التنسيقي في رصف الحروف وتأليفها من مجموعات مؤتلفة.

ثم يتحدث الدراز عن الجانب المعنوي وجماله ويسميه اللب الداخلي للصدفة الجميلة، وهذه الناحية هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها، وهي أعظم الناحيتين أثرًا في الإعجاز اللغوي.

٣ سيد قطب ورأيه في إعجاز القرآن

كتب سيد قطب حول القرآن الكريم ونظمه وأسلوبه والوجوه الكثيرة التي تدل على ربانية مصدره، وذلك في الكتب الثلاثة التي ألفها حول القرآن الكريم: "التصوير الفني في القرآن"، "مشاهد القيامة في القرآن"، "في ظلال القرآن".

إلا أن الجانب الذي أبرزه في كتاباته هو التصوير الفني في القرآن، وارتبط اسم التصوير الفني في القرآن باسم سيد قطب، وهو أول من أبرز الجوانب الجمالية الفنية في أسلوب القرآن الكريم نت هذه الناحية.

يقسم سيد قطب مراحل تذوق الجمال القرآني إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة التذوق الفطري؛ في هذه المرحلة يجد الإنسان مس القرآن، ويلمس تأثيره وينبهر به، ويستسلم له، ولا يحاول أن يبحث عن سر ما يلمس، وتعليل ما يجد؛ لأنه في شغل عن بيان كل هذا، وهو ما حدث لمن عاصروا نزول القرآن وأخذتهم روعته من المؤمنين وحتى الكافرين أيضًا؛ فقد أدركوا حلاوته وطلاوته، وإنما صدهم عنه العناد والكبر.

المرحلة الثانية: مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة؛ وتبدأ في منتصف القرن الثاني للهجرة، عندما أقبل العلماء على القرآن الكريم من مفسرين وأدباء ومتكلمين.

وكانت نظرتهم له جزئية قاصرة على جانب معين ولم يدركوا الخصائص العامة للقرآن؛ بسبب وقوفهم عند حدود عقلية النقد العربي القديمة، التي تتناول كل نص على حدة فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه – إلى الحد الذي تستطيع — دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله.

المرحلة الثالثة: إدراك الخصائص العامة؛ لم تتم إلا في العصر الحديث، حيث بدأت الكتابة في الخصائص العامة للجمال الفني في القرآن.

بهذه الدراسات القيمة يكون سيد قطب قد أضاف بعدًا جديدًا إلى مفهوم إعجاز النظم القرآني من الناحية البيانية.

ويبقى كتاب الله الخالد ومعجزة رسوله الباقية المَعين الصافي والنبع المتدفق للمعارف الراقية والدراسات المتجددة، ولن تنقضي عجائبه ولن يحيط بأسراره مخلوق مهما أوتي من العلم والحكمة.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ).